الباب الثامن

فى التقيد

وفيه خمسة مباحث

المبحث الأول

فـى فوائـد التقييـد

أعلم ان التقييد بأحد الأنواع الآتية يكون لزيادة الفائدة وتقويتها لدى السامع لما هو معروف من ان الحكم كلما ازدادت قيوده ازداد ايضاحا وتخصيصا ، فتكون فائدته اتم وأكمل ، لا فرق فى ذلك بين تقييد المسند إليه والمسند ، ولا بين التقييد بتابع ومفعول نحو ذلك .

وكثير من مسائل هذا الباب ذكر فى كتب النحاة على النحو الذى يشاكل بحثهم دون نظر الى غامض الفروق ولطيف المزايا فأن تينك الفائدتين من مقاصد علماء البيان الذين قصروا مباحثهم على تعرف خواص التركيب ، وأسرار الأساليب ، وما فيها من دقيق الوضع ، وباهر الصنع .

المبحث الثانى

فـى التقييد بالمفاعيل ونحوهـا

التقييد بالمفاعيل ونحوها من الحال والتمييز لزيادة التخصيص المستلزم كثرة الفائدة ، وبالنواسخ للأغراض التى تؤديها معانى الفاظها كالأستمرار وحكاية الحال الماضية فى كان [1] والتوقيت بزمن معين فى ظل وأخواتها ، والمقاربة فى كاد وكرب والتأكيد فى أن والتشبيه فى كأن الى نحو ذلك .

---

(١) فالمقيد فى كان محمد منطلقا هو منطلقا لا كان اذ هو المسند وكان قيد له .

المبحث الثالث

فـى التقييد بالنوابـع

سنجمل الكلام فى هذا المبحث لأنه قد بين فى علم النحو ببسط وأطناب فينعت المسند إليه لنكات منها .

(١) تمييزه بتخصيصه ان كان نكرة وتوضيحه ان كان معرفة .

(٢) الكشف عن حقيقته كما يقال الجسم الطويل العريض العميق يحتاج الى فراغ يشغله ، ومنه فى غير المسند اليه قول اوس بن حجر التميمى فى مرثية فضالة ابن كلدة :

الالمعـى الـذى يـظـن بـك الـظـن كـأن قـد رأى وقـد سـمـعـا

فالالمعى هو المتوقد ذكاء وفطنة ومن لوازمه انه اذا ظن بك ظنا طابقت فراسته الواقع ، وقد روى ان الاصمعى سئل عن الالمعى فانشد البيت .

(٣) التأكيد نحو أمس الدابر كان يوما عظيما ، وعليه قوله تعالي (تلك عَشرة كاملة) .

(٤) بيان المقصود وتفسيره نحو (ومَا من دَابة فى الأرض ولا طائر بجناحيه) قال فى الكشاف : فان قلت هلا قيل وما من دابة ولا طائر الا أمم امثالكم وما معنى هذه الزيادة ، قلت معنى ذلك زيادة التعميم والاحاطة كانه قيل وما من دابة قط فى جميع الارضين السبع وما من طائر قط فى جو السماء من جميع ما يطير بجناحية الا امم امثالكم محفوظة احوالها غير مهمل امرها .

(٥) المدح نحو : جاءنى محمد الأديب .

(٦) الذم نحو : سافر ابراهيم الاحمق .

ويؤكد لاعتبارات منها : .

(١) تحقيق المراد بحيث لا يحتمل الكلام غيره كما تقول جئت أنا .

(٢) دفع توهم السامع تجوز المتكلم او سهوه نحو . قدم صديقك نفسه .

(٣) دفع توهم عدم الشمول نحو . جاء القوم كلهم ، اذ لو قلت جاء القوم وسكت لكان يجوز ان يخطر ببال السامع ان بعضهم قد تخلف الا انك لم تعتد به او جعلت الواقع من البعض كانه واقع من الجميع كما يقال للقبيلة صنعتم وفعلتم ويراد فعل قد كان من البعض يرشد الى ذلك قوله تعالى ﴿ فعقروا الناقة ﴾ والعاقر لها قدار لكنهم نزلوا منزلته لرضاهم بفعلته .

ويبين لمزايا منها :

(١) المدح نحو ﴿ جَعل الله الكعبه البيت الحرام قياما للناس ﴾ فالبيت الحرام عطف بيان على الكعبة لغرض مدحها بأنها حرم آمن .

(٢) الايضاح والتفسير بما يختص بالمتبوع ويوضح ذاته نحو : قال ابو الحسن على كرم الله وجهه .

ويبدل لأغراض أهمها :

زيادة التقرير اذ البدل اذ البدل كالتفسير بعد الابهام فيزداد به تقرير المقصود فى ذهن السامع ، ومنه فى غير المسند اليه ﴿ أهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم ﴾ .

أما فى بدل الكل فللمذكر مرتين ، وأما فى بدل البعض ، فلأن المتكلم لما اتى بالمبدل منه أولا ثم أتى بالبدل ثانيا كان كالمنبه على التجوز والاجمال فى المبدل منه فيؤثر فى النفس تأثيرا لا يوجد عنه الاقتصار على الثانى ، وأما فى بدل الاشتمال فلأن البدل تشعر به النفس فى الجملة قبل ذكره وتتشوف لشئ يطلبه الكلام السابق فاذا ذكر صار متكررا .

ويعطف عليه لدراع منها :

(١) تفصيل المسند إليه باختصار نحو جاء محمد وعلى فانه أخصر من جاء محمد وجاء على ، مع افادة التفصيل بالنسبة لقولك جاءنى رجلان ، ولا يعلم منه تفصيل المسند اذ الواو لمطلق الجمع ولا دلالة فيه لمجئ أحدهما قبل الآخر أو بعده أو معه .

(٢) تفصيل المسند من الاختصار نحو : جاء محمد فعلى او ثم على ، او جاء القوم حتى خالد ، فهذه الثلاثة الحروف وان اشتركت فى تفصيل المسند فالأول يدل على التعقيب هى غير مهلة ، والثانى مع المهلة ، والثالث يفيد ترتيب اجزائه من الأضعف الى الأقوى او بالعكس نحو :

وكنت فتىً من جند ابليس فارتقى بى الحال حتى صار ابليس من جندى

(٣) الشك من المتكلم اذا كان لا يدرى الحقيقة .

(٤) التشكيك اى ايقاع السامع فى الشك .

(٥) التجاهل نحو : ﴿ وانا أو اياكم لعلى هدى او فى ضلال مبين ﴾ .

(٦) التخيير او الاباحة نحو : ليدخل الدار محمد او على ، والفرق بينهما انه يجوز الجمع فى الاباحة دون التخيير .

(٧) رد السامع عن الخطأ فى الحكم الى الصواب نحو جاءنى على لا خالد لمن اعتقد ان خالدا دون على أو انهما جاءاك معا .

المبحث الرابع
فى التقييد بضمير الفصل

يؤتى بعد المسند إليه بضمير الفصل لأغراض منها :

(١) التخصيص اى قصر المسند على المسند اليه اذا لم يكن فى الكلام ما يفيد القصر سواه نحو : ﴿ ألم يعلموا ان الله هو يقبل التوبة عن عباده ﴾ .

(٢) تأكيد التخصيص اذا كان فى التركيب مخصص آخر نحو :﴿ ان اﷲ هو الرزاق ﴾ ومنه قول ابى الطيب :

اذا كان الشباب السكر والشيب هما فالحياة هى الحمام

يريد انه اذا كان الشخص ابان الشباب كالسكران غافلا عن العواقب وفى الشيب حزينا بسبب ضعفه فلا خير فى الحياة . بل هى الموت .

(٣) تمييز الخبر عن الصفة نحو : الفصيح هو جيد البيان طلق اللسان .

المبحث الخامس
فى التقييد بالشرط

يقيد الفعل بالشرط للأغراض التى تستفاد من معانى الأدوات كالزمان فى متى والمكان فى أين والحال فى كيفما الى آخر ما أستوفى بيانه علم النحو ، لكن نذكر هنا ما بين أن وإن ولو من الفروق الدقيقة التى تشاكل مباحث هذا الفن .

بيان هذا ان المقصود من الجملة الشرطية عند علماء العربية انما هو النسبة التى يدل عليها الجزاء سواء أكانت خبرية أم انشائية ، والشرط قيد لها وسبب فيها لا يغيرها عن حالها الأولى من الخبرية أو الإنشائية ، وقد خرج بدخول الأداة عليه عن كونه خبرا يحتمل صدقا وكذبا فقولك ان نجحت أكافئك معناه أكافئك حين نجاحك ، وقولك ان جاء محمد فاكرمه اى اكرمه وقت مجيئه .

(ان واذا) تشتركان فى الدلالة على تليق حصول الجزاء على حصول الشرط فى المستقبل ، ويمتاز كل منهما بما يلى :

(أ) تمتاز ان بدلالتها بحسب الوضع اللغوى على عدم حزم المتكلم بوقوع الشرط فى الزمن المستقبل نحو ﴿ فان جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ﴾ ومن ثم لا تقع فى كلام الله تعالى الا على سبيل الحكاية او التأويل فالأول كقوله تعالى حكاية عن يوسف ﴿ وان لا تصرف عنى كيدهن اصب اليهن ﴾ والثانى نحو ﴿ وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ﴾ فقد جاءت فى التنزيل على نمط اساليبهم وعلى الطريقة التى يعبر بها المتكلم منهم حينما يكون غير جازم بوقوع الشرط .

(ب) تمتاز اذا باستعمالها لغة فى كل ما يجزم المتكلم بوقوعه فى الزمن المقبل نحو ﴿ اذا زلزت الأرض زلزالها ﴾ .

ومن أجل ما بينهما من الفرق كانت الاحكام النادرة الوقوع مع لفظ المضارع مواقع لأن ، والأحوال الكثيرة الوقوع ولفظ الماضى الدال على تحقق الوقوع قطعا نظرا الى

نفس لفظه ﴿ وان كان قد نقل بعد دخول الأداة عليه الى معنى الاستقبال ﴾ مواقع لاذا .

وقد اجتمعتا فى قوله تعالى ﴿ فإذا جاءَتهم الحسنة قالوا لنا هذه وان تُصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ﴾ اى اذا جاء آل فرعون حسنة كخصب ورخاء وكثرة اولاد قالوا نحت احقاء بها ، وان اصابهم جدب وبلاء تشاءموا من موسى ومن آمن معه ، فعبر باذا فى جانب الحسنة لأن المقصود منها الجنس وهو مقطوع بحصوله لكثرته وبأن فى جانب السيئة لندورها ولهذا نكرت للدلالة على القلة .

قال فى الكشاف وللجهل بمواقع ان وإذا يزيغ كثير من الخاصة عن الصواب فيغلطون ، الا ترى إلي عبد الرحمن بن حسان كيف اخطأ بهما الموقع فى قوله يخاطب بعض الولاة وقد سأله حاجة فلم يقضها ثم شفع له فيها فقضاها :

ذممتَ ولم تُحمد وأدركت حاجتى	تولى سواكم اجرها واصطناعها
ابى لك كسب الحمد رأى مقصر	ونفس أضاق الله بالخير باعها
اذا هى حثته على الخير مرة	عصاها وان همت بشر اطاعها

ولو عكس فى استعمال الاداتين لأصاب الغرض .

(تنبيه) قد تستعمل كل من الاداتين موضع الأخرى فتستعمل ان فى الشرط المجزوم بثبوته لأغراض منها :

(١) التجاهل اذا اقتضاه المقام كما يقول المعتذر : ان كنت فعلت هذا فعن غير قصد .

(٢) تنزيل المخاطب منزلة الجاهل لانه لم يجر على مقتضى علمه كما يقال للابن الذى لا يراعى حقوق الابوة : ان كان هذا اباك فراع حقوقه عليك .

(٣) التوبيخ على الفعل تنبيها على انه لقيام البراهين المقتضية وقوع خلافه كأنه محال الوقوع فيفرض كما يفرض المحال نحو ﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحا ان كنتم قوما مسرفين ﴾ [١] فى قراءة الكسر اذ اسرفهم محقق لكنه عبر عنه بان توبيخا لهم

---

(١) المعنى انهملكم ونضرب عنكم القرآن بترك انزاله لكم وترك ما فيه من وعد او وعيد اعراضا عنكم ان كنتم مسرفين .

واشارة الى انهم لو تأملوا الآيات الظاهرة لصار الاسراف كانه محال الحصول اذ هو لا يصدر عن عاقل فى مثل هذه الحال .

(٤) تغليب غير من اتصف بالشرط على من اتصف به نحو ﴿ وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾ فقد غلب من لم يرتب من المخاطبين علي من ارتاب وكان يعرف الحق وينكره عنادا .

كما تستعمل ايضا فى المستحيل المجزوم بنفيه على سبيل المساهلة وارخاء للعنان لالزام الخصم وتبكيته نحو ﴿ قل ان كان للرحْمن ولدٌ فانا أول العَابدين ﴾ :

وتستعمل اذا فى مواضع الشك لاغراض أهمها :

(١) الاشارة الى ان مثل ذلك الشرط لا ينبغى ان يكون مشكوكا فيه نحو قولك لمن قال . لا أدرى أيتفضل على الأمير بالنوال ، إذا تفضل عليك فكيف يكون شكرك .

(٢) عدم شك المخاطب .

(٣) تغليب الجازم على غير الجازم .

(٤) تنزيل المخاطب منزلة الجازم الذى لاشك عنده .

ولما كانت الاداتان لتعليق الجزاء بالشرط فى الاستقبال التزم فى جملتيهما الفعلية والاستقبال ، ذاك ان الشرط مفروض الحصول فى المستقبل فيمتنع ثبوته ومضية والجزاء معلق عليه ، ولا يعدل عن الاستقبال فى اللفظ والمعنى الى المعنى فقط الا لنكتة كابراز غير الحاصل فى معرض ما هو حاصل وذلك اما :

(١) للتفاؤل نحو : ان عشت نفعت امتى وبلادى .

(٢) لقوة الأسباب وتوافرها كان تقول حين انعقاد الشراء ان اشتريت كان كذا .

(٣) لأظهار الرغبة فى وقوعه فيكثر تصور المتكلم اياه حتى يخيل اليه ما ليس بالحاصل حاصلا كما تقول ان ظفرت بحسن العاقبة فذاك ما ابغى وعليه قوله تعالى

﴿ ولاتكرْهوا فتياتكمْ على البَغاء ان أردن تحصنا [1] ﴾ جئ بلفظ الماضى للدلالة على توافر الرغبة فى تحصنهن .

(٤) للتعريض نحو ﴿ ولئن اتبعتَ أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم انك اذا لمن الظالمين ﴾ قال فى الكشاف . هذا كلام وارد على سبيل الفرض والتقدير وفيه لطف السامعين وزيادة واستقطاع لحال من يترك الدليل بعد انارته ويتبع الهوى .

ونظيره فى التعريض ﴿ ومالى لا اعبد الذى فَطرنى واليه ترجَعون ﴾ اذ المراد ومالكم لا تعبدون الذى فطركم كما يدل عليه (ترجعون) .

ووجه حسن التعريض وملاحته اسماع المخاطبين الحق على وجه لا يورثهم مزيد غضب ، وذلك لانك تترك التصريح بنسبتهم الى الباطل ، وذلك انفذ فى اعماق القلوب حيث لا يريد المتكلم لهم إلا ما يريده لنفسه ، وهذا النوع كثير جدا فى القرآن الكريم ، ﴿ قل لا تسألون عما اجرمنا ولا نسأل عما تعملون ﴾ .

(تنبيه) قد تستعمل ان فى غير الاستقبال قياسا مطردا فى موضعين .

(١) اذا كان الشرط لفظ كان نحو ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا ﴾ الآية .

(إذا ﴾ جئ بها فى مقام التأكيد بعد واو الحال لمجرد الربط دون الشرط نحو : على وإن كثر ماله يخيل ، وقليلا فى غير ذلك كقول ابى العلاء :

فيا وطن ان فاتنى بك سابق ... من الدهر فلينعم بساكنك البال [2]

كما تستعمل اذا اما :

(١) المضى نحو ﴿ حتى اذا سَاوى بين الصدَفْين ﴾ .

(٢) للاستمرار نحو ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ﴾ .

(لو) للشرط فى الماضى مع القطع بانتفاء الشرط فيلزم انتفاء الجزاء بمعنى

---

(١) الفتيات الاماء وكان من عادتهم فى الجاهلية ان يكرهوهن على تلك الفعلة الشنعاء .

(٢) الغرض من ذلك التحسر وجواب ان محذوف اى فلا لوم على لانى تركتك كرها يدل عليه فلينعم .

ان الجزاء كان يمكن ان يقع لو وجد الشرط ، فأذا قلت لو جئتنى لأكرمتك فهم منه ان المجئ شرط فى الاكرام وانه على تقدير وقوعه يقع الاكرام ، ولهذا قيل ان لو لامتناع الثانى لامتناع الأول . وعليه قوله تعالى : ﴿ فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ اى أن انتفاء الهداية انما هو بسبب انتفاء المشيئة ، ونحوه قول الحماسى :

ولو طار ذو حافر قبلها لطارت ولكنه لم يطر (١)

فان عدم طيران ذلك الفرس بسبب انه لم يطر ذو حافر قبلها .

وتجئ قليلا لامتناع الاول لامتناع الثانى فتفيد الدلالة على ان العلم بانتفاء الثانى علة للعلم بانتفاء الأول ضرورة انتفاء الملزوم بانتفاء اللازم من غير التفات الى ان علة انتفاء الجزاء فى الخارج ما هى ، وعلى ذلك جاء قوله تعالى ﴿ لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدنا ﴾ اذ المعنى انه علم انتفاء تعدد الالهة بسبب العلم بانتفاء الفساد ، ويكثر هذا فى مقاما لأدلة والبراهين . لكن الاستعمال الأول هو الشائع السمتفيض فى القرآن والحديث واشعار العرب .

ويجب كون جملتيهما فعليتين ماضويتين ، فان دخلت على مضارع كان ذلك لنكتة اما :

(١) قصد الاستمرار فى الماضى حينا فحينا نحو ﴿ لوْ يطيعكم فى كثير من الأمر لعَنتمُ ﴾ (٢) .

قال فى الكشاف انما قيل يطيعكم دون اطاعكم للدلالة على انه كان فى ارادتهم استمرار عمله على ما يستصوبونه وانه كلما عنَّ لهم رأى فى أمر كان معمولا عليه بدليل قوله فى كثير من الأمر كما تقول فلان يقرى الضيف ويحمى الحريم ، تريد انه مما اعتاده ووجد منه على طريق الاستمرار .

(٢) وأما لتنزيل المضارع منزلة الماضى لصدوره عمن لا خلاف فى وقوع اخباره نحو ﴿ ولو ترى اذ وقفوا على النار ﴾ ، ﴿ ولو ترى اذ المجرمون ناكسو رؤوسهم ﴾ ونظيره ﴿ ربما يود الذين كفروا ﴾ قال الزمخشرى . فان قلت لم أدخلت ربما على المضارع وقد أبوا دخولها الا على الماضى ، قلت لأن المترقب فى اخبار الله تعالى بمنزلة المقطوع به فى تحققه فكانه قيل ربما ود .

---

(١) ان عدم طيران الفرس معلوم والمقصد بيان السبب وهو انه لم يطر قبلها ذو حافر .

(٢) العنت الهلاك .